الجامعات العربية والاسلامية
بين تأصيلها ومهام العصر

الدكتور عادل جاسم البياتي
الاستاذ في كلية الآداب - الجامعة المستنصرية

تنويه : هذا أحد البحوث المقدمة الى الندوة التي عقدتها الجامعة المستنصرية بالتعاون مع اتحاد الجامعات العربية .

تطمح هذه الورقة المتواضعة إلى أن تخرج من اطارها المقترح لها في صورة تخطيط عام متصور ، لكي تكون دراسة لمشروع أوسع ذي نظرة مستقبلية لما ينبغي أن تحتويه الجامعات العربية والاسلامية معا داخل أوعيتها المتعددة لتؤدي دورها كاملا في تكوين القيادات الفكرية وتضطلع بمهمة التأصيل التي لا يمكن أن يحجر عليها بعيدا عن (التحديث) المطلوب ، لكي لا توضع (الصيغ) الموحية والمعبرة هنا في قوالب ثابتة قد تؤدي إلى خلاف ما ينتظر منها . ولسنا هنا بصدد مقترح لما ينبغي أن تكون الأشياء عليه لأن التكهن بواقع لم يولد بعد ، أمر في غاية الصعوبة فالمفاجئات والتوقعات وانتظار ما يأتي أو ما لا يأتي ، أشياء لا تغيب عن ذاكرة البحث إنما الذي يندرج تحت هذا المخطط يمكن أن يمتد النقاش فيه إلى مدى بعيد جدا ، لكنه يبقى في زاوية المنظور التأملي ، خارج دائرة الحدث المعاش والواقعية وحتى المقبلة ، ضمن حركة الجماهير وهواجسها المتعددة .

ولعل ماتذكر هنا من قضايا تشغل بال الناس والمفكرين ، قد طرحت أكثر من مرة على طاولة المناقشة ودخلت أروقة الندوات الفكرية والمؤتمرات العلمية والحلقات الدراسية ، وخرجت منها كما تخرج الحقيقة على تعبير البلاغيين العرب - عارية ناصعة فنحن على أعتاب عالم جديد ، غريب صاخب متلاطم ، فما الذي أعددناه قبل أن نلج أبوابه ونركب أهواله ؟ أهي المراكب القديمة نفسها أم الاستعانة بأساطيل جديدة ، أم أن الأقدار تخبىء لنا في غيوبها الغامضة المجهولة (صيغة مثلى) نتمثلها أم أنها تتقمصنا فتمضي بنا إلى شاطىء الأمان والاستقرار والسلام ؟ إن إعطاء حكم قريب من الواقع فيها ، ممكن ومستساغ أيضا ، لكن امكانية حصر مشكلات العصر وتطويقها ودراستها

مرحليا يكون أكثر اغراء في وضع اليد على الحل القريب لكنها مسألة أرقام وحسابات تؤدي إلى استقراءات تقريبية معتمدة .

منذ أكثر من ألف وخمسمائة عام كان العرب هم الحصاة اللازوردية التي ألقت بها العناية الالهية في بركة الانسانية الراكدة ، فتنطلق من مركزها عشرات الحلقات التي ظلت تتسع حتى غطت أقاصي الأطلسي . فما الذي جعل دائرتنا اليوم تضيق دون أن يلتفت إليها ؟ . . أهي التحديات القوية التي تجابهنا ؟ لكن متى كنا بلا تحديات ؟ إنه التحدي نفسه خرج في صورة بارثيين وساسانيين فرس ويونانيين إغريق وبيزنطيين روم واثيوبيين أحباش ، فلم تتكسر قيودنا إلا بالصيغة العربية المثلى « الإسلام » احتواه العرب واحتواهم فذوبوا امبراطورية زرعت أرض الشرق رموزا وثنية مجوسية ، واحتواه العثمانيون فأتموا ما بدأ به العرب من تذويب للامبراطورية الرومانية التي عادت في ثياب الصليبيين فاحتوته العروبة ثانية لترده في صورة صهاينة اسرائيليين يجتاحون الأرض والناس والقيم فيحيلونها هشيما أو رمادا بما يزودهم به الغرب ذي الأمجاد الصليبية المختفية . إنه التحدي نفسه ، ونحن نودع قرناً ونستقبل آخر فما دور القيادات العلمية وما دور مؤسساتها الأكاديمية في الوطن العربي الكبير والعالم الاسلامي الأكبر ؟

إن هذا البحث لا يصف علاجا لأنه كما حددت هويته ابتداء ، ليس أكثر من صيغة (ورقة) مقترحة في شكل مخطط تصوري تحلم أن تخرج من اطارها إلى اعداد (مشروع) مستقبلي أوسع يشمل جميع الأطراف المعنية من جامعات المسلمين ، عربية وغير عربية . ويتقرر من هذا أنها ليست ورقة سياسية لكنها لا تبرىء نفسها من السياسة والتدخل فيها عندما تريد أن تربط بين الأحداث الكبيرة التي تهز الوطن العربي والعالم الاسلامي والانسانية جمعاء وبين تدريس الآداب والعلوم وبالأخص تاريخ العلم والتحقيق العلمي وبعبارة أكثر موفقية بين العملية التربويةالأكاديمية في جميع مستوياتها (الدبلوم ، الليسانس ، البكالوريوس ، الدراسات العليا في الفروع الانسانية والفروع العلمية) . فمن ملاحظات القائم بهذه الورقة ، أن الجامعات لم توفق خلال القرن المنصرم وبالتحديد مطالع القرن العشرين الميلادي في أن توصل الأنماط المعرفية التي تقدمها لأجيالها بالأنماط السلوكية التي جسدتها حركة الأجيال في داخل مجتمعاتها المتغيرة وهي تجتاز صعوبات القهر والاستلاب . فلم تعد الجامعة فاعلة في الأحداث أكثر من تيسير الحصول على اجازة التخطي لحواجز ، ثم يلتحم المتخرج في صراع الأحداث الضارية دون أن يجد في يده السلاح الذي يحتمي به من مهاوي التحريف ومزالق التشويش حتى

حصلت عملية الانفصام بين التأصيل والتجديد أو التحديث التي نفذت على مجتمعنا العربي بوجه خاص . والمجتمعات الاسلامية بوجه عام ، وعندما دارت الأحداث العالمية وعجلة التكنولوجيا بقوة هائلة وجدت جامعات العرب والمسلمين أنها خرجت أفواجا إن لم يكونوا عاطلين ، فعملهم لا يرقى الى أكثر من سد الرمق ولم تكن الأسباب كلها في نظام سياسي دون غيره وإنما تعود أيضا إلى طبيعة السياسات العلمية التي لم توفق إلى التنسيق مع الجامعات ويعود أيضا إلى جمود جامعي حين اقتصرت على العملية التربوية الروتينية دون تطوير . فلم تكن تعيد فحص كياناتها وطبيعة التراكمات الحاصلة فيها على مضي الزمن مع نقد وتقويم منهجي مستمرين وإذا كانت الجامعات الأوروبية وفي الأعم الأشمل (جامعات الغرب) وتدخل ضمنها جامعات الولايات المتحدة الأمريكية قد تخبطت أشواطا فليس يعني كذلك أنهم تأطروا حول تقاليد جامعية موروثة . كما لم يكن التخطي متجاوزا لتلك التقاليد بما يشبه الانفصام وانما تظل العملية لديهم تؤدى وفق الأسس المدروسة بما يضمن للتراث حضوره وللأصالة امتدادها وللمعاصرة تجددها وتطورها ، بحسب مفهومهم لهذه المصطلحات ليحققوا لمصلحتهم النهائية ديمومة وخلودا . فلينظر أحدنا إلى نفسه إن كان متخرجا من جامعة غربية (أوروبية أو أمريكية) وبالأخص من اختصوا هناك بتاريخ أمتهم العربية أو دينهم الاسلامي أو الأدب واللغة العربية ، هل تساهلت معه جامعته في لغتها الوطنية ؟ على أن بعض الجامعات الأمريكية تشترط أن يلم الطلبة المغتربون بالتاريخ الوطني للولاياتي المتحدة ؟ فماذايعني ذلك أبعد من عملية التحويل ؟ إنه ـ إن لم يكن لغسل العقول ـ تواصل وتفاعل وعطاء مستمر يكمن فيه سر نجاح العملية .

ولم تكن المؤسسات الثقافية والمدارس ودور العلم وبيوت الحكمة العربية والاسلامية بغافلة عنه في الماضي بل كانت تضع شروط العربية وتاريخ الاسلام من بين شروطها المختلفة ، لكنها تفعل هذا بعد دراسة للأحداث ، منطلقة من صميمها ولكي تخرج الدفعات العلمية منسجمة مع الخط العربي والاسلامي لتكون العملية مجدية من كافةوجوهها السياسية والاقتصادية والادارية فكانت العملية وحركة الجماهير تسيران معا ، فلم يكن طالب العلم إذ ينتمي لجهة فئوية أو سياسية يشعر تجاه مؤسسته الثقافية بعدم الانتماء والولاء ، وإنما كانت العروبة والاسلام أساس العملية ، فكانت تأخذ في الأقطار العربية شكلها القومي المعهود ، وفي الأمصار الاسلامية إطارها المستمد من (عروبة الاسلام) ولا تنفصل هنا قضية الوحدة العربية وأساسها المتين في بناء الاسلام

بدليل أن الدولة العربية الأموية في الأندلس تقدمت ونهضت في أوج قوة العرب في الشرق مع تقدم العباسيين ونهوضهم ، فلما ضعف شأن العرب في المشرق وغربت شمسهم في أرضهم اشتدت حركة (الارتداد) في المغرب وأصيبت الدولة العربية فيها بنكسات أدت إلى انهيارها ، فكانت العلاقة الوحدوية خفية بين الأمة الواحدة وإن كانت الأنظمة غير منسجمة ، مع أن حربا بين الطرفين لم تقع . وكانت عملية نشر اللغة العربية وتطوير تدريسها هي الأساس لمنطلق الجامعات كلها ، فتابعتها وسارت في ركابها عملية (التعريب) التي لا تعني تعريب الألسن فحسب بالقضاء على الهجنة واللهجات المحلية الدارجة أو بتيسير الفصيحة لأبناء البلدان المعتنقة للاسلام كما لم تقتصر على تعريب المصطلح المنقول عن الدواوين الشرقية بالفهلوية والغربية باليونانية واللاتينية فقط . ولم تقف عند نشر الثقافة وتأصيلها ومن ثم تحديثها أو تعصيرها وإن كانت الأصالة والتحديث والتعصير لا تنفصل عن موضعها في الدلالات والمؤشرات النهائية في عرف الجامعات كما لا يقف مدلول الثقافة عند حدود مرسومة وإنما تأخذ بمفهوم الاجتماعيين والانثروبولوجين في تعريف الثقافة وإن كانت عند الآخرين تتسع حتى تشمل (مجموع المفاهيم والتصورات للعالم) وكذلك التعريب الذي يعني التفكير بالعربية وليس باللغة الأجنبية ثم الترجمة الذهنية والنقل السريع إلى العربية في داخل الذهن وهو غاية الانفصام وكذلك العلاقة الجوهرية بين التعريب وهدف الوحدة العربية وبعد هذا كله يتصل الأمر بقضية أساسية هي الهجرة العامة بما فيها هجرة عمال ماهرين وغير ماهرين وكان غرمها وثقلها على الجامعات باهظا فمنها هجرة الأدمغة أصحاب المواهب الفذة وهم أفراد متميزون موهوبون لا يجدون لهم في وطنهم العربي أو الاسلامي مناخا ملائما يتنفسون فيه علميا وشخصيا بسهولة فيرحلون ومنها هجرة الكفاءات العملية المتخصصة وتدخل ضمن الهجرات نزوع كثير من طلبة الدراسات الأولية والعليا نحو تحصيل العلم من خارج الأقطار العربية والإسلامية لجملة من المسببات ، يترتب عليها بالتالي تحول هذا الطالب إلى كفاءة نادرة مهاجرة تعيش ضربا من (التغريب تصعب مداواته) .

لقد وقفت الكيانات الثقافية في ماضي العرب والاسلام دون هذه الظواهر ، فأقرت أسس فنية وقد توارثنا هذه الأسس ، وبذلنا الجهد لكي نحتفظ بها صحيحة سليمة ، لكن المنطلق جاء من كونهم حافظوا على الجوهر من أن يتغيرا وينطمس تحت ركام الأحداث ، فدرسوا لكل حالة علمية وضعها الخاص والعام ليضمنوا لها النجاح ، ويحولوا دون (اغتراب) الأساتذة والطلبة والمؤسسات ، ولم يكن هناك في الماضي

(تغريب) ، وإنما كان (العالم) و (الشيخ) يتنقل في أرجاء عالم كبير يزخر بالثقافة العربية الاسلامية . حقا كانت في بداية النهضة الحديثة صعوبات لكن هذه الحالة أذيبت بعد أن تحقق للوجود العربي والاسلامي كيانه المستقل في بعض المواقع المتقدمة من العالم ، لكن الوقوف على الجوهر المطلوب لم يتحقق ، بل بدأت الجامعات مسيرة الضياع فاغتربت ثم تغربت وذلك ضمن مخطط التحديث و(التعصير) (الانفتاح) فنحن مغتربون تحت طائلة هذه المصطلحات التي تعني أكاديميا : الأصالة ، فلو درست هذه المصطلحات ضمن مفهوم الأصالة لكان التجديد والتعصير والانفتاح أصيلا لا مستورداً ، وهنا نؤكد مرةأخرى على ضرورة (تاريخ العلم) والتحقيق العلمي لربطها عضويا وجدليا بالتحديث والانفتاح . فالورقة هنا تعتمد القومية العربية منطلقا ثقافيا أصيلا للمثقف المسلم في كل مكان ، واللغة العربية أداة ووسيلة ووعاء حاملا لكل المعاني والصيغ الاسلامية ذات المحتوى والتجارب العربية والتعريب باعتباره قضية العصر الملحة للوصول إلى أسرع النتائج وأفضلها والوقوف في وجه (الاغتراب) المتسبب من (التغريب) أي (الاتجاه نحو الغرب) ، بجميع أصول جامعاتنا الدينية والاسلامية دون الاقتصار على الانتفاع بالنتائج والتطور التكنولوجي ، لتؤدي إلى نتائج عملية عربية واسلامية خالصة . وإن الصيغة المثلى الأساسية لجميع هذه العمليات ، ينبغي أن تتم تحت مظلة الاسلام الواسعة . لطالما أهملت الجامعات الاسلامية هذا الجوهر في تكوينها وهو (عروبة الاسلام) ونحن بدورنا أدرنا ظهورنا لأقرب الناس إلينا في الحقل التعليمي والمهني العالي ، وهي الجامعات الاسلامية ، فلم نتحاور معها في كيفية العمل ومن أين تبدأ هذا العمل وماذا عملنا وكيف بدأنا وإلى أين انتهينا . إن النتائج التي توصلت إليها تجارب الماضي القريب هي العزلة التي أصابت الجامعة والجماهير فيما بينها ، وبين الجامعة وطلبتها وحتى الأساتذة وقد بات الطلبة مفرغين من كل محتوى عربي اسلامي ، فامتدت أيدي غريبة لتملأ هذا الفراغ ، ولم تمتد أذرع الجامعات إليها ، فكانت النتائج بائسة ، ليست مستحيلة التغيير لكن محبطة واذن ليس (التأصيل) أن تعد الجامعات طلبة وتدريسين مزودين بالتراث والسلفية ، والثقافة اللغوية والدراسات القومية لتحول بينهم وبين مبتكرات العلم والتكنولوجيا والمعارف الانسانية الأخرى ، وليس (التحديث) أن نعد عالما يمكن أن نستورد خيرامنه لأغراضنا ، ليس له انتماء داخل وطنه ، متغربا بفكرة ، فتكون الجامعة بذلك (مصنعا) لرجال ليسوا لها ولأوطانها . فما الذي يشد خريج الجامعة العربية إلى غير جامعته ، كما لو كان مواطنا ينتسب بالهوية فحسب دون المشاعر ، أهي

السياسات العلمية التي تنتهجها الجامعات الأجنبية ، أم الخلل المشخص في جامعاتنا وسياساتها العلمية أيضا ؟ . . .

لقد درست ظروف عديدة ، ونوقشت نتائج كثيرة ، وجرى تقويم لبعض المقترحات ، واستوجبت مراجعة لبعض المصطلحات التي وجدت أنها أخذت بخير وجهها المطلوب في المعالجة والاصلاح فالملاحظ على أكثر الباحثين العرب اليوم ، أنهم يرتكزون في تعريفاته لأغلب المصطلحات والظواهر العلمية والاجتماعية على النموذج الغربي ، وربما أنماط السلوك الأخرى وتجارب البشر في خلاصة الاستنتاج ، لكن يبقى النمط الغربي هو الأمثل ـ عندهم ـ في كل نتيجة . ومن هنا وردت تأكيدات العلماء العرب الموصوفين بالدقة والمتحققين في شؤون البحث ومختلف الحقول المعرفية والتعبيرية والفنية على وضع الصيغ المستوردة موضع التحقق والمقارنة ، لتنسجم ومعطيات واقعنا العربي وحتى الواقع القطري في أدنى أهدافنا ، والواقع الاسلامي في أقرب صلاتنا ، وإن كانت في أساسها النظري ينبغي أن تصب في نهر الانسانية الكبير . لأن مصطلحا مثل (الاصالة و (المعاصرة) و (الحداثة) و (الثقافة) و (التراث) و (السلفية) و (التقدمية) و (الاقليمية) و (العنصرية) و (الوطنية) بو (الوطنية) و (الانسانية) و (الأممية)[1] . وغيرها من عشرات المصطلحات قد حققت أبعادا محددة ومتعددة معا في أذهان الفرد والجمهور على حد سواء ، وهي إلى جانب ذلك تمتلك أكثر من خاصية ولها أكثر من ذراع ، خلافا لغيرها من المصطلحات التي تقتصر على جانبها العلمي أو الأدبي ولا تدخل عنصرا فاعلا من الأحداث البعيدة عن أطرها المقننة لها فمصطلح (الشعر) مثلا أو (الميكانيك) أو (الأدب) أو (الجيولوجيا) و(الهيدرولوجيا) تبقى كما هي ذات بعد محدد ، ولا تطرح في أكثر من مجالاتها ، بينما استخدمت لفظة (القومية) مثلا لدى الكتاب الإقليميين بدلا من الإقليمية ، فلهجوا بالقومية المصرية مثلا مقابل الفرعونية وعلى العموم نستطيع القول بأن مثل هذه الظواهر المصطلحية ، وحتى ذوات البعد المحدود تمتلك سمة الأممية أو العالمية إن صح التعبير ، إذ كل أمة من أمم الأرض وشعب من شعوبها له تراثه وسلفيته وأصالته وحداثته وقوميته وانسانيته . كما أن له نظراته إلى (العنصرية) و (الطائفية) و (القطرية) و (الأممية) لكن يبقى (الطريق الخاص) في إيصال المعرفة والعلوم والآداب والفنون عبر القنوات الذاتية لتجارب الأمة الواحدة أو الأمم عامة ، هو المحصلة النهائية لافرازات هذه المصطلحات ، وهنا يبرز بوضوح دور القيادات على جميع مستوياتها : الدولة وحزبها القائد أو من يمتلك التوجيه فيها ،

والمؤسسات العلمية وقياداتها الفكرية . وليس من صميم عملي هنا أن أبحث في طبيعة الأمر الأول ، وإنما يقتصر بحثي على الجامعات ودورها في تأصيل العلم وتحديثه ، ودور العلماء وأعضاء الهيئة التدريسية في الجامعات العربية والاسلامية ، وإن كانت الدول بكوادرها المتقدمة وقياداتها الفكرية تدخل في حركة العلوم والآداب والتربية باعتبارها عنصرا موجها أيضا وفاعلا ومنفعلا في الإيجاب والسلب . والذي ستوجه الأنظار إليه ، أن الجامعات وهذا شيء واضح جدا ، لم تحسم هذا الأمر ولم تقل كلمتها البنّاءة فيه ، ونرجو أن تفعل ذلك مستقبلا .

إن وضع صيغ مشتركة ومدروسة من قبل الجامعات العربية والاسلامية ، تعمل على توحيد الفكر ولو بنسبة معينة ، وتوضيح المصطلح من وجهة نظر عربية ليعرفها المسلمون من غير العرب ، ومن وجهة نظر اسلامية ليعرفها المسلمون العرب ، مع بذل الجهد المدروس للوصول إلى تلك الصيغ المقترح اشتراكها ، لما بين العرب والاسلام من تلاحم وتلازم ، لأن أية صيغة ذهنية ذات محتوى فكري إنساني تتمثله الجهات الاسلامية غير العربية ، سيكون له غير قليل من الظلال والآثار العربية لأن امتداد الثقافة في اللغة والفكر والحضارة الاسلامية غير خفي ، كما سيظهره هذا البحث . إن هذه المصطلحات الأولية المتفرعة عن القضايا المصيرية التي تخوضها الأمة العربية ويخوضها المسلمون معها ستبدو أكثر جدوى عندما نخوض في تفصيلاتها ، فالعرب والمسلمون يشكلون الجزء الهام من (منظومة دول العالم الثالث) ويكونون قاعدة أساسية في (دول عدم الانحياز) ويتهددهم خطر واحد هو (العنصرية) المتنامية في هذه الأيام ضاغطة على العرب والمسلمين من جهات مختلفة متعددة ، جانب منه في الصراع العربي ضد الصهيونية المحتلة لقلب الأراضي العربية ، وهو صراع يتهدد المسلمين أيضا بلا أدنى شك . والصراع العربي ضد العنصرية القديمةالعائدة مجددا والمتمثلة بالفارسية المتلثّمة بالدين لتلتهم منطقة الخليج العربي بعد أن التهمت الأحواز العربية والمعتدية بكل شراسة على الأراضي العراقية . وإذاتحولنا نحو القرن الافريقي ، صدمتنا المذابح العنصرية اليومية التي تدار فيها . وجدير بأن يذكر أن هذه المخاطر وعدوانها المنصب بشكل خاص على العرب والمسلمين إنما تدار في الجبهات الشرقية والغربية بتخطيط بارع وخبيث من أيدي العنصريين الصهاينة ، وليست ظاهرة (الخمينية) الا فرزا خططت له الدوائر الاستعمارية والصهيونية ، وحققت عن طريقه هدفين : كتم صوت الثورةالحقيقية للمسلمين في إيران لتنحرف نحو وجهة عنصرية فارسية تعادي العرب ، وتوجيه ضربة

انتقامية للعرب وبوجه خاص لنموذج ثورتهم في العراق المتحرر بفكره واقتصاده وأرضه . هذا مثل أوردته لكي أضع أمام الأنظار قضية من قضايا العرب والمسلمين في تقرير مصير حياتهم وأرضهم ومعتقدهم ، وكيف يرتبط هذا المصير وهذه القضية الملتهبة بمصطلح العنصرية وأبعاده في أذهان الناس . وهنا تبرز مهمات الكوادر الجامعية ، فليس دورها منحصرا في التلقين ، فالمثل الذي قدمناه بصدد توحيد المصطلح ومدلولاته وما مر بنا من علاقته بالقضايا الأساسية في حياة العرب ، وما يروج حول اليقظة الروحية ، وهي تمتد إلى أميركا نفسها في إحصاء مالا يقل عن إحدى عشر فرقة دينية ينضوي فيها الشباب ، إنما سببه فيما علل الباحثون يعود إلى الحرب العالمية الثانية ونتائجها ، وبالنسبة إلى العرب هي مردها إلى حرب حزيران ١٩٦٧ وهزيمة الأنظمة الحاكمة يومذاك ، لكن العرب عالجوا هذه الظواهر بما يوافقها من الحلول في بعض الأقطار ، فكانت ثورة العراق في عام ١٩٦٨ هي الرد الحاسم وإعادة جانب مهم من الثقة أعقبتها خطوات رئيسيةهامة . وقد كانت سوريا قد طمحت إلى مثل ذلك في أول أمرها[٢] .

لقد أفرغت الجامعات من بعض مضامينها الثقافية والفكرية التي تشرح سمو الفكرة بين القومية العربية ولغتها وبين الاسلام . وكان الأوائل يدركون مثل هذه العلاقة ، لكن رجال هذا العصر ، وبالأخص مطالع النهضة ، بدأوا لا ينتبهون إليها جيدا ، وفي أخبار جمال الدين الأفغاني ، قبل أن تتبلور له وحدة اللغة والقومية والدين ، أنه أكد على اللغة متجاوزا أمر الدين ، وقد نقل ساطع الحصري عنه مثل ذلك[٣] . لكنه عاد بعدها وتبين فكرة الجامعة الاسلامية المبنية على القومية العربية ولغتها . واذن فالدور الرئيسي الذي ينتظر الجامعات العربية هو التوجه نحو نفسها ونحو حليفتها الجامعات الاسلامية لتأكيد الدور الثقافي والفكري للغة العربية ومعطياتها ، لأنها لغة القرآن الكريم الذي ينظر إليه في جميع هذه الأقطار على أنه شريعة من كلام الخالق ، وان مقاطع منه يجب أن تردد في الصلاة ، وان تلاوته من أسمى الشعائر . ولمثل هذاالتوجه في تكريس مهام العربية في الجامعات الاسلامية ما يبرره ، فقد برهنت العربية على أنها أداة لنشر الاسلام وفي وصف الأحداث والتعبير عن المشاعر الملتهبة . ورأى مستعرب (دنماركي) أن العربية ، وقد كانت أداة جيدة للتعبير عن النظم الكبرى ، لاشك أنها قادرة على التكيف بالفلسفة الحديثة[٤] . وقد كانت الحضارة الاسلامية منذ عصورها المتقدمة تنظر إلى العربية على أنها أهم شيء فيها ، فرسخت في أقطار اسلامية متعددة يومذاك : الهند ، باكستان ، ايران ، فشاعت حروفها شيوع الدين ، حتى أن

كنائس الأقباط في القرن التاسع الهجري استخدمت العربية في خطبها الوعظية[٥] . وإذا كانت تركيا قد تخلت عن الالفباء العربي تحت ضغط ظروف معينة ، فإن بقاءها في النصوص الدينية ، مسهل لها سبيل العودة إليها اليوم وهو ما بدأ يحصل الآن من اقرار تركيا مر ا للغة العربية وتدريسها ، على ان أثر العربية كبير في الفارسية والسواحلية ولهجات موريتانيا وارتيريا . وقد كانت الجامعة (جامعة الدول العربية) المكتب الدائم لتنسيق التعريف قد طرحت ورقة على أكثر من سبعين استاذا جامعيا في الوطن العربي وأوروبا سنة ١٩٦٨ حول علاقة الاسلام باللغة العربية فكانت ارجابات العربية والاسلامية والأوروبية ـ عدا بعض الأفراد ـ في اتجاه العربية وتلاحمها الصميمي بالاسلام[٦] وقد كانت إجابة الجامعة السورية على استفتاء الورقة بأن أكدت ضرورة هذه العلاقة حين رفعتها ـ كما شرح الامام الشافعي ـ إلى مستوى الفرض المقدس ، فكان التقاعس عن تعلم العربية معناه التخلي عن فريضة والاخلال بأحد المباديء التي أكدها الوحي القرآني ، كما لاحظت الورقة أن أي تغيير في الدراسات القرآنية يؤدي إلى انخفاض ما في مكاسب اللغة العربية[٧] ويؤكد ابن تيمية أن استعمال أية لغة أخرى غير العربية للحياة أو الدين مكروه في نظلا الاسلام ولإيضاح الصورة ، أو جزء في أهميتها ما يأتي :

أ ــ أدت هذه اللغة دورها متكاملا في عصور الحضارة الوسيطة ولم تتعثر مهمتها إزاء النظم الفلسفية الكبرى والمذاهب الكلامية والفرق والملل والطوائف ، بل تكيفت لكل ألوان العلوم والفنون والآداب ونعلم نحن أرباب الصنعة كيف كانت اللغة أداة طيّعة للشاعر قبل الاسلام وهو يوغل بها في أوحش المسالك وأوعر الدروب وأغلظ الأطر ، فكانت تلين لـه لفظا ومعنى ، فلما رقت حواشي الحضارة العربيةولأن طبع الناس ، وبدأ الشعراء يسلكون مسالك التأنق والتلطف والبهرجة ، كانت اللغة العربية تجري في قيادة سلسة هينة ناعمة في مفرداتها وعباراتها وأخيلتها وصورها ، فهي لغةالحضارة وفي الوقت نفسه هي لغةالصحراء كما طاب لبعض المستعمرين أن يطلق عليها .

ب ــ وإذا شئنا أن ننظر إلى تكيفها وسيولتها على ألسنة المسلمين من غير العرب ، فقد برهنت المئات من القرون التي أعقبت الفتوح وانتشار الاسلام على صلاحيتها ومناسبتها لجميع الألسن ، مما يرد المقولة الخاسرة بأن العربية لا تصلح لغة إلا لأهلها ، خلافا للانكليزية مثلا التي تسهل وتستقيم على كل لسان . إنه التجني ، ولو شاءوا لقالوا الصدق والحق ويعرفه مستعربوهم وعلماؤهم . ويعلمون جيدا أن

التفقه بالعربية غيره بالانكليزية أو الفرنسية أو الألمانية ، لما تحمله هذه اللغة في أعماقها وتضاعيف مفرداتها من الثقافة الملازمة والمعرفة المرافقة لها على مدى العصور والأزمان . وإنه لمن دواعي العجب أن نعترف نحن ، والأجانب على السواء من أن التفقه باللاتينية ترافقه معرفة معجمية وثقافية موسوعية خلافا للتفقه باللغات الأوروبية المستحدثة ، ولا نعترف نحن ولا الأجانب بأن العربية أغزر من اللاتينية معجما وأثرى منها موسوعة . وإذا كان بعض المسلمين ممن تكلموا وتفقهوا وألفوا بالعربية قد رطنوا بها ، فأن ذلك لم يظهر في مؤلفاتهم ولا فشا بين أبنائهم وإنما ظهر الأبناء معربين فصحاء ، كأحسن ما يكون الناطق بها . وقد روى الباحثون أغرب الأحداث عن حب المسلمين من غير العرب للغة العربية ، حتى بلغ في الهند درجة أنهم كانوا يطوقون بالوفود العربية يطلبون منهم أن يخطبوا فالفصحى تيمنا بها[٨] .

جـ ــ أما على مستوى الوصف أو التعبير ، فتعتبر العربية أقوى اللغات في هذا المضمار ، فقد كانت أفضل أداة لانتشار الاسلام . وليست ببعيدة عنا أسفار المسلمين الأوائل التي تضمنت أروع الأوصاف لمختلف الأحوال الانسانية الكونية والبشرية كما تضمنت أسفارهم أصدق التعبير عن مشاعرهم وعواطفهم ووجدانهم الملتهب .

وبذلك تتضح العلاقة القائمة بين الاسلام والعربية حتى أصبح الشعور اللغوي عند الناطق بالعربية يمتد إلى مدى بعيد جدا شعوره بالمبادىء الدينية ، وعلى هذا الأساس يفسر تحمس الأكراد والفرس والهنود وآسيويين آخرين للدين ، فزاد تعلقهم بالعربية وحبهم لها ، وقد قال أبو الريحان البيروني وهو فارسي لئن أهجى بالعربية خير لي من أن أمدح بالفارسية . ثم لما راجت الأفكار العنصرية بدأوا يتجهون إلى تفضيل لغاتهم القومية ، فترتب عليه دون شك ضعف الوازع الديني وقد حافظ الشعور الديني على العربية طيلة قرون عديدة في كثير من الأقطار الاسلامية حتى أن الباكستان في بداية الاستقلال عزمت على جعل لغة الدولة الرسمية هي اللغة العربيةولكانت خطوة ميمونة لو كانت الجامعات العربية والاسلامية قد وعت دورها . وهنا تتجسد اشارة شيخ الاسلام في السنغال حول النزعةالعالمية التي يسير عليها الاسلام مما أتاحت انتشار اللغة في كل الأصقاع . فعبرت عن الشعور الديني . لذلك أشاع في السنغال العربية في التعليم[٩] بمعدل (٥٠,٠٠٠) طفل درس العربية حتى عام ١٩٧٩ ومن المعلوم أن العربية تشكل اللغة القومية والوطنية في السنغال ونيجيريا ومالي . ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل أصبحت (الولوفية) مثلا وهي إحدى لغات السنغال ، لغة تثقيف وتربية بفضل القرآن

الكريم[١٠] ولقد طالب مندوبون أفارقة ، المؤتمر الخاص بالعالم الاسلامي المنعقد بمكة المكرمة سنة ١٩٦٥ أن تمدهم الأقطار العربية بمدرسين في العربية واقترح أن يقوم بعض الطلبة الأفارقة بدراسة اللغة العربية في الأقطار العربية وهذا أمر نلاحظه نحن أعضاء الهيئة التدريسية في جامعات القطر العراقي وقد تحقق بنسبة معقولة ولا نراه إلا متعثرا في أجزاء عديدة من الوطن العربي . وتفيدنا إحدى الدراسات بأن العربية والاسلام في المهاجر الأمريكية الشمالية والجنوبية اللاتينية لم يعد على ما كان عليه في أول هذا القرن وإن شعور هؤلاء المغتربين من الوجهة الدينية غير متمحور بالنسبة للمحيط العربي الاسلامي والمحيط الاسلامي غير العربي فقد ضعف الشعور الديني وتبعه بالضرورة الشعور اللغوي للجالية العربية المسلمة وبالأخص في الأرجنتين من بين خمسة أقطار كان ضغط الهجرات العربية عليها شديدا إذ تبلغ الجالية العربية في الأرجنتين حوالي (٤٠٠,٠٠٠) نسمة فلم يعد أفرادها يستمدون من لغتهم وثقافتهم الاسلامية مكونات فكرهم وعناصر ثقافتهم أو على الأقل من اللغة الاسبانية الشائعة هناك والتي يتضمن معجمها مالا يقل عن ١٥٪ من المفردات ذات الأصل العربي وظاهر أن المهاجر الأميركية تشكل تساؤلا عن السبب في ضعف الوازع الديني واللغوي وأيا كان السبب فحتميته تصح على الاثنين وهو أن الاسلام يضعف بضعف اللغة أو تضعف اللغة بضعف الاسلام[١١] .

ووردت إشارات كثيرة تربط بين الاسلام والعربية وكل منهما قاعدة صلبة للآخر ولعل أبرزها يتبادر إلى الذهن قول النبي (ص) من أحب الله ورسوله أحب العرب ولغتهم ، وتوجد اشارة مشابهة تؤثر عن الخليفة عمر بن الخطاب في هذا المجال . وقد بنيت المؤسسات الثقافية العربية في المشرق والمغرب يومذاك على هذا الأساس وليس ما يمنع أن نعيد بناء الجامعات العربية على هذه الأصول وهذا الاتجاه وهو ما يؤكد قول بعض الباحثين من أن مصلحة المسلمين تقتضي أن يكون العرب أقوياء بوحدتهم ولا يوجد من يخالف هذا الاتجاه إلا من كان تحت تأثير ظروف سياسية عارضة وهذا لا يقاس عليه[١٢] . وقد بنى صاحب هذا الرأي على ذلك أن المسلمين كانوا على مدى تاريخهم يجلون العرب ولغتهم ورأينا بينهم من يعتبر الانتساب للعرب شرفا مع أنه ينتسب لقوم وعرق بعيد عنهم فالشعوب الاسلامية من غير العرب أقرب الناس للعرب في التحالف الطبيعي[١٣] وجامعاتهم أنسب الجامعات لتيسير لغةالقرآن الكريم والحديث والسنة النبوية وتقريبها لابنائهم إذا كانت هناك حقا حركة إحياء (روحي) ففي كنف الاسلام

وأهله ولغته وليس في الوثنية أو المجوسية أو المادية الديالكتيكية أو الماركسية وأما المواطنون المسيحيون فليس وضعهم بغريب عنا فهم مع العرب داخل وعاء الوعي القومي ومع المسلمين داخل نطاق التراث الحضاري الاسلامي الذي هو أصل معطيات تراثهم بما فيها الديانة التوحيدية منذ عهد ابراهيم الخليل . لقد كانت جامعات الغرب المستعمر ومؤسساته العلمية والفكرية كما يعبر باحث آخر هي (المصنع الذي هيأ الكوادر) السياسية والفكرية الوطنية التي أخذت تشارك السلطة المحتلة في إدارة مرافق البلاد حتى غدونا نتلقى على أعدائنا أعداء العروبة والاسلام كل شيء بما في ذلك اللغة العربية والمعتقدات الاسلامية فكانت الثمرة : تيار التغريب علا صوته حتى تفرد بالساحة داخل المدرسة والجامعة والمنتدى والجمعية والكتاب والديوان حتى أجبر التيار الاسلامي على الوقوف والجمود عند فكرية العصر العثماني فانزوى وتقوقع[١٤] .

ولا أدري كيف يفهم التأكيد على نهج العروبة بأنه اقليمية أو العكس أي التأكيد على نهج الاسلام بأنه عداء للقومية . إن المسألة ليست كذلك فالاسلام غير منقطع عن أوله وهو العروبة كما أن العروبة غير مفرغة عن محتواها وهو الاسلام ومن لا أول له لا آخر له ، والعرب هم مادة الاسلام لكن تبقى قضية أساسية قد يكون اللبس فيها حاصلا منذ مرحلة الثلاثينيات عندما بدأت أقلام الكتاب تلهج بما يؤكد على منحى الإقليمية مقابل القومية وعاد مثلها في هذه الأيام . ليس ما يردده لويس عوض اليوم مثلا أو ما ردده سلامة موسى يراد به القومية وإنما أراد الإقليمية الفرعونية مع أن الفراعنة ليسوا بإقليم وإنما هم أقوام عاشت على أرض مصر العربية وهي تمثل وجوهاً لو تجددت لما تجددت بغير السحنات والقسمات العربية شأنهم في ذلك شأن من كان في وادي الرافدين أو بردى أو شبه الجزيرة العربية . وأوضح ما يمكن أن تعالج به هذه القضية هو أننا لا ننكر كون مصر كان فيهافراعنة أو العراق كان فيه سومريون وآشوريون وبابليون وسواهم وليس هناك ما يمنع أن نفخر بهذا الماضي الحضاري العريق لكن ألا ندعه يسقط ظلاله القاتمة على واقع عربي يجب أن يكون موحدا وليس له من (وحدة) مالم يكن قويا ولا قوة بلا أحلاف وأشرف هذه الأحلاف هم العرب وإخوتهم في الدين والمعتقد والثقافة ثم الأصدقاء في جميع أنحاء العالم .

ولو شئنا أن نفخر نحن العرب في شيء فبحرصنا على العقيدة الاسلامية منذ انطلاقة الغرب الأوروبي بتحدياته الكبيرة لفل العروش الاسلامية في مطلع هذا القرن . وهنا نسأل ماذا فعلت ايران مثلا قبل مائة عام عندما بدأت الهجمة ضد الاسلام قادمة من

الغرب وماذا فعل العثمانيون أيضا ؟ وهما المركزان الكبيران للسياسة المحلية والدولية في الأقطار الاسلامية يومذاك[١٥] . وإذاكانت ايران لظروفها الخاصة وطريقها الذي انتهجته في معتقدها الديني قد تخلت عن كل التزام فلن نرفع أصبع الاتهام عن العثمانيين بل أدى جمودهم وتخلفهم إلى أن تتحرك مراكز خرى في النهضة والاصلاح . صحيح أن هذه المراكز عربية وأن العرب دائما يقاتلون نيابة عن إخوانهم المسلمين عندما تتهدد (بيضة الدين) إلا أن التحرك العثماني لو كان مع النهضةوالاصلاح في أعلى مستوياته لما أخذت دعوات النهضة ومن مراكز معينة بالذات طريقا ندين اليوم أكثر توجهاته . ولا كانت النتيجة أن الغرب الذي ضرب الشرق الاسلامي مستعينا بقوة العرب فأنهى العثمانيون ، يتنكر لجميع تعهداته والتزاماته ووجد العرب أنفسهم قد بدلوا سيدا بسيد . ولو كان السيد المسلم العثماني الضعيف عليهم لكان أهون لهم مما حل بهم فيما بعد . وإذن فالخطأ من العثمانيين أنهم حجروا على الثقافة العربية والاسلامية وحددوا من استخدام اللغة العربية وطوقوا الفكر العربي وذهبوا أبعد من ذلك فروجوا وركزوا الأنانية القومية الطورانية كما فعلت ايران برجوعها إلى العنصر الساساني وتعميق التأكيد على الخصوصية الإيرانية على مرّ الأدوار التاريخية ، وبقي الوطن العربي وحيدا في مجابهة جدلية العصر الخطيرة المتشعبة الأبعاد[١٥]. وعلى هذا نقول أن العرب والمسلمين إذا بدأوا بتعريق جامعاتهم « تأصيلها » وذلك بالعودة إلى تراث الاسلام العظيم ، فسيكون هذا منطلق عمل سياسي توحيدي كبير يعطي ثماره في أقرب فرصة ، على أن هذا لن يتم إلا بعقد مؤتمر عربي للجامعات العربية تتخلله ندوات وحلقات علمية ودراسية ، وتدعمه أموال العرب والمسلمين . لقد جعلت اسرائيل من الجامعة العبرية مركز إشعاع بفكرها الدعائي لفكرها العنصري الصهيوني ، ولا أقول (الصهيوني) فحسب بل ينبغي ذكر (العنصرية) أيضاً ، لأن من تمكنت اسرائيل من تحييدهم أو نجحت في شراء ضمائرهم في العالم اليوم ، قد لا يجدون في الدعاية الصهيونية ما يسيء إليهم وربما وصفوها في اطار العقيدة الدينية ، لكنني أضيف أيضاً ، أن الجامعة العبرية اليوم تؤدي دوراً سياسياً خطيراً في تكريس العدوان وخلق المبررات ، وآخر ما سمعناه عند زيارة . . فرنسوا ميتران . . الأخيرة لتل أبيب ، أن تستدعي الحكومة كبار البروفسوريين ورئيس الجامعة العبرية ليتحدثوا في أجهزة الاعلام والتلفزة عن فحوى تلك ا لزيارة ، مقدرين لما لأساتذة الجامعات من أثر ومكانة في نفوس الناس في كل أرجاء العالم ، فيكون حديثهم على مستوى الاعلام العالي اجتذاباً لجمهور المثقفين والجامعيين والجمهور في داخل الأرض المحتلة والعالم معاً .

إذن لا موضع للقلق في أن تمضي الجامعات العربية والإسلامية معاً في قضية التعريب ، لتؤدي رسالتها على الوجه الإسلامي الأكمل والصحيح ، وحتى الرسالة في إطارها القومي داخل الاسلام ، بل الناس لا يعون أية رسالة مهما كانت جنسيتها إلا كونها تمتزج بقيم اللغة العربيةالعريقة ، والمثل الاسلامية دون التحفظ من أية ردود فعل جانبية توضع في الاحتمال ، لأن العروبة هي المظلة الواقية والاسلام خير ضامن لمسيرة الجميع . وإن مثل هذه الخطوة الأكاديمية لو تمت ستجعل من طريق التواصل ومهمات التعامل وقنوات التبادل بين الجامعات العربية والاسلامية أكثر انفتاحاً واتساعاً لأن الجامعات الاسلامية تلتقي بالجامعات العربية في أمتن وشائج القربى وصلة الرحم ، وهي اللغة العربية ومكوناتها الثقافية والاسلامية . وستربطنا المكونات بالتراث العربي قبل الاسلام لديمومة كثير من المثل والسجايا والقيم العريقة التي عرفها المستعربون في العصور الاسلامية وتعشقوها ، وتعشقوا العربية معها . وقد ورد في رأي الباحث المعاصر ما نصّه[١٦] : « لقد أعطى الاسلام وانتشار العربية والتعريب ، أهل المغرب رسالة ، حين شاركوا في الامتداد عبر البحر المتوسط » هذا الدور يمكن إعادته الآن عن طريق الجامعات في حوض المتوسط وفي المناطق الصحراوية والقارة الافريقيةإذا تعاونت الجامعات فيما بينها من طرف والجامعات الاسلامية من طرف آخر ، مع الاستعانة باللغة العربية من طرف ثالث كأداة في هذا التعاون ، لما تحمله من مدلولات وقيم حضاريةوثقافية وتراثية ونفسية ، وإنها كانت الأداة المهمة في العملية الناجحة لحركات التحرير والفتوح الأولى التي غمرت هذه الربوع . ويمضي الباحث نحو تأكيد المراكز العلمية التي كانت قاعدة متينة للاسلام وانتشاره من جهة ، وللعربية والتعريب من جهة ثانية ، فكانت الحركة المستمرة التي ولدتها اتصالات طلاب العلم والمعرفة من أفضل السبل في الحفاظ على الثقافة والتراث وتوليد فكر جديد يعتمدها ، يقول[١٧] : « وأنشأ عقبة بن نافع القيروان لتكون عزاً للاسلام ، واتسعت الصلات الثقافية بين المشرق والمغرب بين تلاميذ يذهبون إلى المشرق وعلماء من المشرق يأتون إلى أفريقيا ، وكان أمر ذلك ملحوظاً في نشر الاسلام والعربية ، كما ان القيروان تحولت إلى مركز ثقافي نشط » إن هذه التجارب جديرة بأن تعطي مؤشر النجاح للعملية اليوم ، ولو أنها وضعت من زمن لكانت الجامعات الافريقية أكثر جدوى منها في هذا اليوم بحكم مركزها الستراتيجي ، وهي مهمة يمكن أن تنهض بها الجامعات الاسلامية في الشرق أيضاً ، لأن الدور العلمي القيادي الذي تقدمه الجامعات للأجيال والجماهير على مستوى التدريس أو التأليف أوالمحاضرات في مختلف أنشطة

الاعلام لا يعطي لبؤر (التعليم الأخرى خارج اطار الجامعات الاسلاميةالموجهة وفق تنسيق شامل أي دور في عملية التضليل الواسعة التي نفذت على مستوى خاص وجماهيري معا وباسم الدين وأقنعة المخططين المحسوبين على حقله) ولما أمكنها من تأدية أدوارها المتنوعة مرة باستخدام المصطلحات الاسلامية وأخرى وفق المنطلقات الحديثة مما كان يؤذن بتخريب أوسع للمؤسسات الأكاديمية والجامعية .

ينبغي الالتفات ألى هذه العلاقة الجدلية في الربط بين القومية العربية والاسلام لكي ينتهي وضع ظل شاذا منذ زمن ومستغلا من قبل الخصوم وإن الجامعات العربية والاسلامية هي المرشحة لتكريس هذا المزج الخلاق باعتبارها قيادات فكرية مؤهلة لهذا الدور التاريخي والانساني الذي ستنجم عنه مؤشرات إيجابية للعالم نحو خطوات إنسانية أرحب في طريق الاستقرار والمحبة وما أصدق هذه العبارة[١٨] : (ثم . . هلاّ اعتبرنا من موقف أعدائنا ؟ أولئك الذين ظلت أعينهم طوال مراحل صراعهم ضدنا على هذه الثغرة ينفذون منها ليضربوا كلا من العروبة والاسلام فهم مع عروبة محمد علي ضد اسلام ال عثمان حتى إذا قويت هذه العروبة ضربوها بهذا الاسلام ثم هم مع عرب المشرق ضد سلطان المسلمين في الحرب العالمية الأولى وصولا إلى احتلال تأرض العرب والاسلام جميعا ؟؟ . وتكرر هذه القضية عندما يناصرون (الأحلاف الاسلامية) لضرب المد القومي إبان ازدهار الناصرية) .

هذا كلام قيل قبل حربنا مع ايران ولو ردد الباحث نظره لوجد برهان كلامه لم يزل قائما بعد أن تحققت في العراق أهداف العروبة المجاهدة لجمع الصف العربي والاسلامي فشهرت له الامبريالية (اسلام خميني) لتضربه به بعد أن كشفنا جانبا من تراكمات الماضي البعيد والقريب التي غطت قضية العروبة والاسلام فعاقت مسيرتها متمازجين وسلطنا بعض الأضواء على الدور الذي ينتظر الجامعات العربية والاسلامية أن تؤديه في اطار الأصالة والمعاصرة . وأجد من مكملات البحث أن أشير إلى بعض الصعوبات التي يواجهها التعليم العالي قياسا إلى وضع المسلمين في اوطانهم الممتدة عبر القارتين الآسيوية والأفريقية في مسألة التأصيل والتحديث . فقد لاحظ بعض الباحثين[١٩] إن ما يشبه أن يطلق عليه مفهوم (عزلة ثقافية وتعليمية) قد ضربت بنطاقها على أبناء المسلمين في أوطانهم في الهند مثلا وتأتي العزلة من جانبين .

أ ــ جانب المسلمين أنفسهم بسبب نزعة المحافظة على التقاليد العلمية والاسلامية من جهة ، ونزعة الكراهية التي يكنها المتزمتون من المتدينين تجاه المؤسسات الأجنبية

(الشرقية وغير الاسلامية) والغربية على العموم .

ب ـ والعزلة الثانية تلك التي افتعلها المستعمرون الذين يحتلون شبه القارة الهندية (والحديث للتاريخ القريب) عن طريق التجهيل المتعمد للمسلمين في أثناء التسلط البريطاني وذلك باتباع أساليب الشعوذة والخرافة واصطناع اشخاص دجالين يضللون المسلمين في اتجاهات غير صائبة ، وليست من جذر الدين الحقيقي ، ونركز بوجه خاص على الاستعمار البريطاني الذي عرف بسياسة التجهيل في المناطق التي يحتلها ، فليس له من هم سوى سحب الثروات وكنوز الأرض التي تقع في حوزته ونقلها إلى انكلترا . ويضاف إلى ظاهرة التجهيل المتعمد سياسة الحرمان والمنع لانتشار الثقافة التعليمية الجامعية ، وحجب المعونات المادية والمعنوية عنها « لذلك باءت بالفشل أكثر محاولات سيد أحمد خان ـ الجناح الأعظم[٢٠] في شن حملة في أوائل هذا القرن لنشر التعليم الحديث في صفوف مسلمي الهند فلم يحقق سوى نجاح محدود في حين فشلت مهمته في البيئة الاقطاعية للمجتمع » وبعد أن نالت هذه البلدان الاسلامية استقلالها ، بدأت بوادر الانتعاش في قطاع التعليم العالي ، إلا أن النكسة عادت من جديد ، عندما ظهر العجز بينا في قضية (الكادر العلمي) المؤلف من البعوث الدراسية والمتدربين الأكاديميين الذين استقر بهم المقام في خارج أوطانهم وطالت مدة إقامتهم ، مع استمرار في الهجرة وعدم العودة مما ترتب عليه أن الجامعات لا تقف إلا على نسب ضئيلة لا تستحق أن تذكر بالأرقام تجاه من يهاجرون ولا يعودون ، لقد نجم عن هذا وضع آخر بالاضافة إلى نقص الأساتذة في الجامعات ، إنه نقص تخريج المتدربين والمدرسين والتربويين مما سبب وضعا آخر من مظاهر التخلف الثقافي لذلك البلد ، وإذن فالمعانات في الجامعات العربية والاسلامية جاءت من مصدرين : الأول تاريخي ، جرّته ويلات الاحتلال وهو التجهيل ومضاعفاته ، والثاني حديث ، لا يستبعد الاستعمار عن مسبباته وهي الهجرة ونتائجها . وحقا وضعت حلول في وجه المصدر الثاني بعد أن أصبح الأول في ذمة التاريخ ، وذلك عن طريق إيقاف هجرة الكفاءات بزيادة الدعم الاقتصادي للمؤسسات والرفع والإعلاء من منزلة الجامعات بمنحها فرص التميز الاجتماعي والنفوذ في الأوساط الرسمية ،وهو أمر ضروري جدا في نجاح العملية .

كانت تلك حالة موجزة لإحدى الجامعات الاسلامية نقلها إلينا باحث جامعي مسلم ، وقد اخترت الباكستان ليس على وجه التعيين والتخصيص . وإذا كانت بعض

تقارير الخبراء ومقترحاتهم في الوقوف بوجه هجرة الأدمغة تفيد بأن يصار إلى زيادة الإنفاق على التعليم العالي فإن خبراء آخرين قد أفادوا بعدم جدوى الزيادة أحيانا في كبح جماح الظاهرة .

إن بنغلادش نفسها وقد زادت من مزيانية تعليمها العالي في ١٩٧٧/٧٦ بنسبة ٧٠٪ بقيت تشهد تدفقا كبيرا جدا لخريجيها نحو الخارج ، وإن احتسبت هذه المجموعة المغادرة ، بناء على رغبة دولتهم في الحصول على نصيبها من السوق المزدهرة لبعض التخصصات والحاجة إليهم في دول النفط النامية . وعندما ينظر إلى الوطن العربي على أنه غير موجود سياسيا ، فإن سببا أساسيا يجري في هذا السياق ، وإن كثيرامن الحلول تصبح هامشية تجاه الحل السياسي لوحدة الوطن . وعندما نوقشت ورقة العمل لقطاع (التربية والتعليم العالي في العراق في تموز من عام ١٩٨١) وعاد الحديث مجددا عن هجرة الأدمغة ، كان التشخيص الذي قدمه الرئيس القائد صدام حسين قد لامس أعماق هذه الظاهرة ، وذلك حين دعا إلى دراسة الهجرة بعيدا عن أسبابها المادية ، وقريبا جدا من أسبابها الانسانية فيما يتعلق بالعلماء وحياتهم الخاصة وما يطمحون إليه من توفير أسباب الراحة وجوها المناسب لهم ولعوائلهم بعد يوم عمل طويل ، وهو جانب نفسي يوضع في مقدمة الأسباب والحلول ، وإن الأحداث برهنت على أن عددا من الخبراء في مختلف التخصصات هيئت لهم فرص مادية ثمينة ، لم يجدوا لها مقابلا من الجو المطلوب له ولعائلته ، وهو ما اعتاد عليه في الأوساط الأوروبية المعروفة بتوفر أسباب الراحة والاستجمام وتعددها ، فاضطر إلى الهجرة ثانية .

وتدل الاحصائيات أن الأكفاء من الطلبة بعد انهاء تحصيلهم الجامعي داخل القطر ، يعزمون على اكمال التحصيل النهائي حتى مراحلة الأخيرة ، فإن لم يجدوا ما يحقق لهم هذا الطموح ، وضع قدمه في الطريق الذي يمضي به إلى عالم الأغراب الواسع ، حيث يبدأ الوطن يفقد حدوده في ذهن المهاجر ، بعد أن تمتص المشكلة الذاتية كل منابع الأصالة والشعور الوطني والحس القومي منه . ومثله الطالب الذي تعذر عليه الحصول على معدل معين ، لأكثر من سبب فيدفعه طموحه إلى الارتماء في أحضان الجامعات الأهلية ذات المستوى الأقل . فهي ظاهرة ينبغي أن تدرس لتعود الجامعات العربية والاسلامية حقا مركزا يحتضن الجيل بجميع نسبه ومستوياته ، ولا تترك هذه الشريحة من المغتربين يشكلون ظاهرة غير محمودة العاقبة ، فهي ترتبط بسواها من المشكلات لكن لها وضعا الخاص .

إن « تحديث » الجامعات لا يتوقف عند توفير الكوادر والأجهزة الجديدة والأبنية الواسعة ، مع إهمال أساسي للجانب الانساني من الجيل الـذي سيحتك بهـذا الكادر ويتعامل مع هذه الأجهـزة ، ويحتمي بتلك الأبنية . إن (تحـديث) الجامعـات هو في الحقيقة (تأصيلها) لأننا فهمنا الأصالة كما يفهمها الجميع بمعنى (العـراقة) فـالأصل عريق حديث ، أو بتعبير الأوائل : طريف وتليد . وليست الأصالة أن تتوافر المكونات الأولى بشكل تغلب على معـالم (المعاصـرة) كما لا تعني المعـاصرة أن تفقـد الأصالـة العريقة . فعندما نطالب بالأصالة للجامعات العربية والاسلامية إنما نرمي إلى تحديثها وتعميرها وتأصيلها معا ، يتم ذلك عن طريق جدلية العروبة والاسلام واتصالهما باللغة العربية التي تطرح قضية (التعريب) للجامعات العربية والاسلامية باعتبارها بديهة من البديهيات أو مسلمة من المسلمات أو معالجة ما يعرف بالوعي الروحي أو (إحياء الوعي) من منطلقها الاسلامي الحقيقي ، كما تعالج قضية الاغتراب بأشكالها المختلفة وعملية (التغريب) التي يعيشونها في عوالم الهجرة الدائمة أو المؤقتة وحالة الانفصام أو العزلة بين الجامعات ومنابعها الأولى .

كانت تلك اشارة عابرة لوضع جامعي يلتهب اليوم بقضايا آنية تنتظر المعـالجة والحلول ، وتترتب عليها أجزاء كبيرة من (توليفة) المجتمع أو تشكيلته ، وإذا كانت الورقة ، كما قرر لها ابتداء ، تفتقر إلى التفصيلات الدقيقة في جوانبها المتعددة ، فأن لمس الجرح والتحسس به لا يقل أهمية عن تطبيبه ومعالجته .

اشارات هامشية للمراجع التي اعتمدتها هذه الورقة واستمدت منها جو معلوماتها وفقراتها :

(١) تراجع في هذه المصطلحات المراجع الآتية :
ملاحظات نحو تعريف الثقافة تأليف ت .س . اليوت (ترجمة الدكتور شكري عياد طبعة أولى) « البناء الاجتماعي » للدكتور أحمد أبو زيد (الدار القومية ١٩٦٥) وانظر له أيضا كتاب تايلور (دار المعارف ١٩٥٨) وكتاب (الانثروبولوجيا الثقافية) للدكتور عاطف وصفي (بيروت ١٩٧١) ويراجع في مصطلح « الأصالة » و « التحديث » و « القومية » و « الإقليمية » وغيرها من المصطلحات التي جرى النقاش حولها مقالة « الأصالة في الثقافة العربية » للدكتور احسان عباس ومقالة الاسلام وانتشار اللغة العربية والتعريب للدكتور عبد العزيز الدوري ، ومقالة موقف القوى الخارجية وتحركها في مواجهة العروبة والاسلام » للأستاذ منير شفيق (وتراجع المناقشات حولها أيضا في الملف الخاص ببحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي تنظمها مركز دراسات الوحدة العربية ببيروت ١٩٨١ .

(٢) يراجع المنهاج الثقافي المركزي لحزب البعث العربي الاشتراكي القسم الثاني ، مقالة بعنوان : «الوحدة والحرية والاشتراكية » وينظر « في سبيل البعث » للأستاذ ميشيل عفلق ، وفيه معالجات عديدة لما تطرح في هذه الورقة .

(٣) الدكتورة مارلين نصر ـ التعقيب (٣) على مقالة الأستاذ منح الصلح بعنوان : التمايز والتكامل بين القومية العربية والاسلام ص ٢١٣ ، ٢٥٢ (ملف ندوة القومية العربية والاسلام ـ بيروت ١٩٨١) .

(٤) التعريب وتنسيقه في الوطن العربي للدكتور محمد المنجي الصيادي (ص ٥٤٢) طبع بيروت ١٩٨٠ .

(٥) المصدر السابق نفسه .

(٦) المصدر السابق ص ٥٤٣ .

(٧) م . ن .

(٨) الأستاذ منير شفيق (موقف القوى الخارجية وتحركها في مواجهة العروبة والاسلام (ص ٦٧٩) ملف ندوة (القومية والاسلام ـ بيروت ١٩٨١) .

(٩) التعريب وتنسيقه في الوطن العربي ص ٥٥٧ (اشارة سابقة) .

(١٠) مجلة اللسان العربي المغربية ص ١٧٧ عدد كانون الثاني السنة السادسة (١٩٦٩) مقالة بعنوان : (اللغة الولوفية بالسنغال أصبحت بفضل القرآن أداة تثقيف وتربية) لابراهيم نياس .

(١١) التعريب وتنسيقه ص ٦٠٤ (اشارة سابقة) .

(١٢) د . عبد القادر زيادية : دور الاسلام والعربية لغة وثقافة في تكوين مقومات القومية العربية وفي بعث الوعي القومي العربي ص ١١٤ (ملف ندوة القومية العربية والاسلام ـ اشارة سابقة) .

(١٣) المصدر السابق نفسه .
(١٤) م . ن .
(١٥) د . هشام جعيط ـ تعيقب (٢) (ملف ندوة القومية العربية والاسلام ـ اشارة سابقة) .
(١٦) الاسلام وانتشار اللغة العربية والتعريب للدكتور عبد العزيز الدوري ص ٦١ (ملف الندوة الفكرية . ـ القومية العربية والاسلام ـ) اشارة سابقة .
(١٧) المصدر السابق نفسه .
(١٨) المصدر السابق ص ١٧٥ .
(١٩) سيد محمد نسيم ـ بعض الآثار الاقتصادية والاجتماعية المترتبة على هجرة الكفاءات في باكستان ص ٣٤٥ (ملف بحوث ومناقشات الندوة التي نظمتها اللجنة الاقتصادية لغربي آسيا (اكوا) الأمم المتحدة) عن هجرة الكفاءات العربية نشر مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت (١٩٨١) .
(٢٠) المصدر السابق نفسه .
(٢١) أوسكار غيش ـ ملف ص ٣٦٧ هجرة الكفاءات العربية ـ اشارة سابقة .

معهد البحوث والدراسات العربية
INSTITUT DE RECHERCHES ET D'ETUDES ARABES
مصر اتحاد الجامعات العربية